عام

التأسيس التعارفي للحوار بين الأديان

الحاج دواق

باحث جزائري

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

مدخل:

لا يغيب عن فهمنا الشكل الصراعي الذي غلب على المختلفين عبر تاريخ الإنسانية الطويل، بزعم امتلاك الحقيقة المطلقة وانعدامها عند الأطراف المقابلة، وأن أفضل القيم المتاحة عند البشر جميعا، توجد ضمن الدين الخاص أو المذهب الذي تنتمي الجماعة إليه، والحق كل الحق في مضمار الطائفة والمذهب، ومن غير المعقول أن تؤمن جهة بوجود تمام الخير عندها، ثم تقر بأدنى تسامح مع المخالفين بالسماح - ولو نظريا - بتوافر نصيب من الحق عندهم، وأفضى الأمر تاريخيا إلى التشرذم إنسانيا وإلى الانكفاء على الأنا، والعمل بكل أساليب الفهم وطرائق التربية على دعم الهوة والتوسيع فيها، بحسبان أن النقاء والخلوص يتولدان من التميز والتفرد عن الأغيار، والمركزة العميقة والقوية في نطاق الأصول الخاصة. وأضحى منظار البشر إلى العالم وتقييمهم للآخرين وتجاربهم ينبثق من البؤرة الأساسية للولاء والمتمثلة في مجمل العناصر المشكلة للذات ولرؤيتها للعالم، وكل مقاييسها الحكمية ترجع إليها وبشكل متصلب، حيث تتجلى جديته وصدقيته بمقدار الاتصال والعودة الدائمة إليها. وانتهى الحال إلى دوائر مغلقة مسيجة للذات ومحيطة بها ومسورة بنمط من الفولاذية، يعجز الوعي المتجاوز على تخطيها إلا بمحاولات تتراكم مع تجارب تاريخية مترامية، لا تقف عند السنوات، بل تضرب بأوتادها في تمددات الذوات ومبدعاتها، وتحتاج إلى قرون متطاولة ليتم القضاء على تقاليد التشرنق والانكفاء، والإفضاء إلى أفق الانفتاح والاستيعاب المتبادل.

والناظر في منقولات التاريخ ومدوناته، القديم منها والمحدث، يجد ما بين المختلفين من جولات صراع وحروب دامية، فقط لأن كل جهة ظنت القداسة منها تنبع، والدناسة وجوديا عند غيرها، والخطر كله بين طيات ما يأتيها من أساليب الآخرين وتجاربهم الحياتية، المهددة للأصول وتاليا للفروع؛ فتؤثر الانكماش على مغامرة الانفتاح، لضمان عدم تسلل مكونات الهدم ومولداته، فيضيع الوعي الذاتي وتختلط التجربة وتُغالب الخصوصية وتتأثر إلى حد التلاشي؛ فيستوعب الأقوى الأضعف ويقلده وينقل عنه، إذ لا فضل في ذلك سوى الأذية المترتبة عن فقدان الهوية وتلاشي التفرد، فيمتدون في الفراغ، ويمتلئ وعاء الذات بشر مطبق لا يترك من الكيان السابق سوى رمما، فاقدة للحياة، وليس من شأنها أن تعود من بين صور الماضي الباهتة، إذا وضعنا في الاعتبار امحاء الصور أصلا، بقياس العلاقة اللا متكافئة أصلا...

وإذا رغبنا في التعدي بالفهم إلى أشكال الحياة القادمة لخلناها كذلك، باعتبار الالتفاف الصارم حول الخصوصيات، والرفض المطبق لكل مختلف بدعوى خطورته، وتهديده للآنية، مما يستدعي طرح بديل ثقافي في الصلات بين البشر جميعا وثقافاتهم وأصولها المتمثلة في الديانات المتنوعة، خاصة إذا أخذنا في الحسبان

أن التواصل الثقافي بين الحضارات الإنسانية يكاد يكون مستحيلا، إن لم ينزل أهل الديانات والقائمين عليها إلى حالة من التوافق والالتقاء؛ وهنا يتبادر إلى فهمنا سؤال نراه مهما، وهو:

هل الدين - أي دين - من طبيعته أن ينفتح على التجارب الدينية الأخرى، ويقبل بها على أنها حق؟ أم يتعامل معها بتعال يسقط أية إمكانية بينها للتواصل؟ وكيف يمكن أن يتعاون الناس في خضم الاختلاف الديني وزعم امتلاك النجاة وتاريخها، في مقابل الهلاك الذي ستمنى به الديانات الأخرى ومعتنقيها؟ وهل التحاور بين الأديان ممكن ابتداء؟ أم أنه حوار المتدينين في نطاق رؤاهم؟ وكيف يتحقق وعي الاشتراك والتلاقي، دون محو الخصوصيات الاعتقادية والشعائرية؟

أقدر أن الإجابة حول التساؤلات الواردة يحتاج إلى أسلوب ومنهج تحليل وتفكيك، بقصد الفهم والتفسير والحكم، حتى لا نقع في عبثية نظرية تنطلق من نقطة وتبلغ أخرى من غير اتساق ولا انتظام منطقي، لذا أرى مفيدا استعمال المنهج المعرفي التوحيدي، المعتمد على الإبستومولوجيا التركيبية، التي تبدأ من مجموع مقدمات مبدئية تفضي إلى معادية مآلية، مستصحبة مجموع المؤسسات والعوامل التي أنشأت الفكرة الحوارية والتواصلية بين الديانات، ثم مجموع الضوابط والشروط التي تحفظ الوعي الحواري من التراجع والفشل، زيادة إلى وضع الفكرة في سياق ثقافي لا يعزل الفكرة عن دواعي نجاحها، "ويزداد التحليل رسوخا ووضوحا، إذا عمدنا إلى بيان (المنهج) النموذج كشبكة تصورية تتحكم في مفردات الفهم وعناصره، وتوليد المعقولية إزاء العالم بمكوناته منها، سواء أُأعلن المُتَبَنى وأبرز، أو أضمر وأخفي، وفي الحالين يصدر الوعي عن مشكاة نظرية وتصورية، تحفظ للوعي تحركه المتوازن قبالة الظواهر."[1]

وتفترض التوحيدية أن لكل ظاهرة طبيعية أو تاريخية أو اجتماعية أو نفسية أو ثقافية، منبثقات تكون وتشكل، ومآلات رجوع وعودة، مما يجعل تعقلها ممكنا وواردا في إطارها العام من حيث أسبابها ونهاياتها، ثم من حيث التعرف على تركيبتها وصلاتها بالظواهر الملازمة لها، "أن التوحيدية ليست إطارا عقديا يسلم المؤمن به وبمضامينه وفقط، بل هي سياق تصوري وإطار إبستمولوجي، مؤهل لأن يشكل البديل بالنسبة لنظريات المعرفة الكلاسيكية، كما ويمكنها أن تتحول من الوظيفة الإنتاجية للمعنى، إلى الدور النقدي التقويمي للفلسفات الوضعانية والتفكيكية وما بعدها، خاصة إذا راعينا العمق الإنساني والأخلاقي الذي تتمتع به التوحيدية، فليس من شأن الإنسان أن يفهم ويتعقل وحسب، بل من المهم أن ينظر إلى مآلات ما يفعل، ومدى انعكاسها على التجربة البشرية ككل، فمن اليسير أن أفتق الذرة وعيا وأفجرها، لكن هل أتحمل أعباءها وما تجلبه على مستقبل العالم، من تهديد للوجود من حيث ما هو؟ لذا نرجع بالوعي إلى نمط من النظر يصل المبدأ بالمنتهى، ويراعي النهايات ولو كانت بعيدة، ويستصحب - وعيا - مآل ما يأتيه، متدرجا من مكان البدء، بتخيل

الغاية، ومحيطا بالارتباطات بين ما كان وما يمكن أن يكون، وهذا ما يفرق البشر في ممارساتهم العقلية والوجدانية والأخلاقية."[2]

1- حوار الأديان من الطرح التاريخي إلى الفهم التأسيسي:

من المهم الوقوف نظريا عند الشكل الذي سنطبق به المنهج التوحيدي على الموضوع، بقصد العمل على بناء الفكرة إزاء المطروح، حتى لا يحتوينا الفهم التاريخي لها، رغم أهمية التاريخ في الوعي بالظواهر، بمعنى أنني سأعتمد المنحى التأسيسي لا التبريري، ولا أهتم بالوارد في التأريخ إلا ما كان من جهة الإلماح إلى خطورة التنكب عن جدوى الحوار بين أهل الديانات، والعلة مردها أن التاريخ مليء بتجارب مريرة قائمة على المواجهات الدموية، والنظرات التكفيرية، التي ترى في المخالف دينيا هالكا من اللازم مخالفته ومباينته، ويبلغ الالتزام مداه إذا لم تكن هناك صلة من أي نوع.

والتأسيس، القصد منه استدعاء النصوص المتجاوزة للتاريخ وحيثياته، وإسقاطها على مصاديق مفترضة، تؤول بالتصورات عن البشرية إلى أصلها التكويني الواحد ومآلها المحدد، من مصدرية الوجود ومعاديته، "...والمسيحية التي ظهرت كديانة كونية-عالمية، كليانية شاملة ووعت نفسها كذلك، كان عليها أن تتواءم في مسيرتها مع شعوب كثيرة، حيث لا تتنافر ولا تتعارض مع ثقافات وخبرات وتقاليد اجتماعية إنسانية مختلفة"[03]، وكذا الإسلام بدوره ماتحا من معينه الأول القرآن الذي جاء فيه: **(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا)**[4]، وقد جاء في تفسير الآية في سياق الرؤية الوجودية التوحيدية، أن "قوله تعالى: «يا أيها الناس اتقوا ربكم» إلى قوله: «و نساء» يريد دعوتهم إلى تقوى ربهم في أمر أنفسهم، وهم ناس متحدون في الحقيقة الإنسانية من غير اختلاف فيها بين الرجل منهم والمرأة والصغير والكبير والعاجز والقوي، حتى لا يجحف الرجل منهم بالمرأة ولا يظلم كبيرهم الصغير في مجتمعهم الذي هداهم الله إليه لتتميم سعادتهم والأحكام والقوانين المعمولة بينهم التي ألهمهم إياها لتسهيل طريق حياتهم، وحفظ وجودهم وبقائهم فرادى ومجتمعين"[5].

مراعاة التأسيس تدفعنا إلى تشكيل وعي متجدد إزاء مسألة الصلات بين الديانات، وتجاوز الإرث التاريخي الثقيل المحيل إلى الصراعات المتكررة، والممتدة حتى إلى أيامنا في نطاقات ثقافية وسياقات حضارية أقل ما تنعت به أنها منغلقة منكفئة، لا يمكن أن تتحول إلى حالة حضارة إنسانية قيمية، تستهدف الكرامة الوجودية للكائنات جميعا وأظهرها البشر. "لقد أظهرت التجربة الإنسانية المأساوية للحربين العالميتين، مدى خطورة النظريات القائمة على دعاوى الاستثنائية القومية، والتفوق الثقافي والعرقي والتاريخي. وتقنعنا تلك

الخبرة المريرة بشمولية الإشكالية المتعلقة بمسائل التفاهم بين الناس في وجودهم المشترك على كوكب الأرض."[6]

2– المصير وأسباب التوافق:

أعني بالمصير المآل التاريخي الذي أخذت تتجمع إرهاصاته في عالم الإنسان اليوم، وبذرت عناصره الأولى التي ستتفتق عنه الأيام؛ "..فمسار البشرية، تقلب من طور لآخر، ومرور بفترة تاريخية لأخرى، حتى بلغ مرحلة من التطور حرجة فيها "ينتهي التاريخ في نقطة ما، كي يتجدد التاريخ من نقطة جديدة. يجب أن يكون هذا مفهوما...يجب أن يفشل التاريخ، يجب أن يفلس التاريخ وأحيانا يجب أن نعلن الإفلاس كي يشعر الناس بأن هذا الإفلاس هو طريق البداية"[7].

وأفضي إلى أن البشرية، بحاجة إلى حالة من الحياة، تشكل لها أفق التطور الممتد، الذي سينتهي حتما إلى نهاية تستلم فيها الفئات الخيرة من البشر، زمام المبادرة التاريخية؛ فيستحملون أعباء المكابدات التاريخية المتراوحة بمسؤولية وجودية كونية متعالية، ينعم فيها الإنسان لأنه كذلك، وليس لأنه ذو لون أو دين أو مذهب تنتسب إلى الفئة الغالبة[8].

ونضيف أن التوافق من أوجب المسارب تاريخيا للتملص من ضيق الرؤى المتركزة حول الأنوات المنتفخة، الزاعمة، لامتلاكها لليقين التام، والنافية عن الآخرين تجاربهم كل فضل، ويبدأ التوافق من المعطى الأول، والمتمثل في أن المصير واحد والمآل مشترك، وتاليا من اللازم الوقوف على منطق التعارف والحوار كأهم أسلوب للنجاة من المصير المشؤوم، الذي ينتظر البشر إذا لم يتعاونوا، وأزعم أن الرؤية التعارفية أقوى إطار عقدي ونظري للتواصل بين الأديان وأهلها، وأشير بالمناسبة وأحيل على المعنى الذي استعمل به الحوار بين الأديان وأقصد به التواصل بين أهل الأديان وأبناء الثقافات.

3– المُؤَسسَات النظرية والعقدية للرؤية التعارفية:

أ- التنوع وجوديا والتعدد تاريخيا أرضية للحوار:

من أدعى الأمور التي يجب العمل على أساسها ومن خلالها، ترويج فكرة تنوع البشر وثراء تجاربهم التاريخية، وأنه من غير المقبول قولبتهم في أشكال جاهزة وتامة، لأن الأصل الوجودي فيهم-أي البشر-هو التنوع والتعدد في إطار من التفرد الذي لا ينف تواصلهم وتعارفهم بحسب لغة القرآن الكريم، قال الله سبحانه وتعالى {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}

الحجرات 13، فمع اختلاف الناس واستحالتهم من فجر التاريخ، إلى تجمعات فيها نظم حياتية تتباين بحسب استعداداتهم وإمكانياتهم، يوم ذاك استحال الناس وانصهروا في قوالب واحدة، تختص بمناطقهم ومدى تجاوبهم معها. ولكن استمر التعارف بينهم، ونقل بعضهم إلى بعض خبرته في الحياة؛ فتلاقحت الحضارات والثقافات وأصولها من الديانات والمذاهب الفلسفية والعقدية، وتناسل بعضها من بعض؛ فكان الإنسان في أمتن منجزاته وأكثرها تفردا، مع بقاء الأصل وإن تطاول الفرع وسمق، وخذ لك من غابر الأيام آية، فهم أولاء الفرس وقد أخذوا من الصينيين فتعاظم فيهم الأدب والعمران، وعنهم أخذ اليونان فنبغت فيهم الفلسفة، وظهر فيهم عظماء العقل ومبدعو المنطق، وعنهم اقتبس الرومان فشادوا العقل قوة، والمنطق عمرانا، فتوسعت ديارهم حتى بلغت مشارف العالم القديم وأرضه، ومنهم قاطبة تعلم المسلمون، ومزجوا ما أخذوا بما أسسوا تفردا بوحي من القرآن والسنة؛ فظهر أغزر إنتاج عرفه الإنسان إلى وقتهم، وانبثقت علوم ما سُقوا إليها، أصولا للفقه والدين، ونحوا يقوم اللسان، ولم تنكر أمة على غيرها ما هي فيه، بل سعت إلى التعلم منها، والاستزادة في ذلك، حتى كان لها ما كان ...

وإذن؛ فالتعدد والتنوع هو المدخل المعرفي والوجودي الذي إن توسع الاعتقاد فيه، سيقضي على سطوة التجاوز والتعدي على خصوصيات الآخرين بدعوى صدقية ومطلقية ما نملكه نحن مسلمين أو مسيحيين أو يهود إزاء ديانات الآخرين، وهيمنة النظرة الواحدة تهدد حتى نفسها؛ فكل من رفع سيف البغي، به يقتل.

وأريد أن أُلمح إلى جدوى الاستعانة بآليات العولمة نفسها، بقصد التمكين لضدها، من وسائل الإعلام، وتطورات الاتصال، ويسر التنقلات، والتركيز خاصة على المنظمات الأهلية في الغرب، لتمرير فكرة أن العالم غني وثري ببشر كثر، من ألوان شتى، ولغات عدة، وتاريخ آخر له ما له، وعليه ما عليه، وديانات غير المسيحية واليهودية، كالإسلام، باعتباره منظومة من القيم ووعاء من المعنى بمقدوره أن يصير ضمانة إنسانية للبشر جميعا، عكس ما يروج عنه إلى أنه دين عنف وإرهاب وفساد، ولتمرير أيضا أن البشر جميعا يحق لهم البقاء على ما هم عليه، وإن دعا جزء منهم إلى قيمه- بحرية وأمن وعدل وتقوى-الجزء الآخر، وهذا كله لصالح الإنسان وليس غير الإنسان، فما معنى أن تعمل العولمة على هدم الخصوصيات باسم العدالة، ثم تكون هي أول من ينقلب عليها تحت مسمى أمن العالم، فأين أمن العالم؟. وها هي ذي أمريكا تحمي إسرائيل في كل ما تقوم به، ضاربة مواثيق الإنسانية عرض الحائط، وهذا ما يزيد في توطيد أهل الخصوصيات، ويجعلهم يلتفون حولها مستميتين، وإن الثمن زوال أنظمة...فكما تعاملت المسيحية الرسمية مع اليهودية وغيرها، وتعاونت معها، بل واعتذرت عما صدر عنها في التاريخ، كذلك يجب أن تفعل مع الإسلام، لا من جهة الاعتذار عن الحروب الصليبية وويلاتها، بل تعتذر وحسب عن استبعادها لهذا الدين من دائرة التواصل والعلاقة.

وما عادت خرافة كونية ما يصنعه الغرب تنطلي على ذي بال؛ فالعالم وإن أخذ من مدنية الغرب وتقنيته، فهو يعمل ذلك تحت عنوان العلم صنيعة الإنسانية عبر مكابدات تاريخها الضارب في أعماق الزمن، ولكن بإخضاعها لغربلة قِيَمِيَة، تنتج حياة مواكبة لحاضر البشر في ظل مبادئ وقيم خاصة، خذ مؤشرا على ذلك نموذج الصين والهند وإيران وماليزيا... أما الغزو الثقافي، فقد تمكنت حضارات العالم من تطوير بعض أساليب الحد من سطوته بظهور حركات الصحوة القومية والدينية... والعمل على بعث موروثات الماضي والسعي إلى جعلها تواكب الزمن، وإن سعت العولمة على تبشيعها وتوصيفها بالأصولية تارة، وبالخارجة عن التاريخ طورا... إضافة إلى تعاظم دور المناوئين للعولمة من الغربيين أنفسهم، خاصة وأن وتيرة حوار المثقفين والعلماء تزداد بين الفينة والأخرى، وهكذا يتكامل عقلاء المعمورة في صد شبح الفاشية والشمولية العولمية، وما يضمن لهذه الحوارات الاستمرار والإثمار، أن التاريخ- كما يقول المفكر جودت سعيد- في طريقه إلى الرشد وتعليم البشرية درب الحرية والكرامة، مما يعني-على المدى البعيد- تعاظم المتعاونين السلميين، وتقلص المناوئين لكل تفرد، الذين لا يقبلون رؤية إلا أنفسهم، وإن كان في سمت الآخرين وحياتهم[9]. **(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله)** آل عمران، آية 64.

ب- وحدانية الحق، وتعدد الحقيقة وتوزع تنزلاتها:

ونفصل في القول، بادعاء أن التنوع حقيقة كونية مطلقة شاملة لكل الكائنات المغيب منها والمشهود، دلالة على وحدانية الله سبحانه وتعالى، إيغالا في توكيد العظمة الإلهية، القادرة على إيجاد كل شيء مختلف متباين ومتعدد، إلا الذات العلية السرمدية؛ فإنها قائمة بالوحدانية والأحدية، وصولا إلى أرض عامرة حافلة، غاصة بصنوف شتى من الكائنات الحية والجامدة، من شجر، وحجر، ونهر، وحيوان، ومن كينونات بشرية؛ سمراء، وبيضاء، وحمراء، وسوداء. **(إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)**. البقرة 164. "لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود - وفي رواية لأحمر على أصفر - إلا بالتقوى".

فالآيات تدل على أن التنوع الكوني الطبيعي الحي والجامد، له مشروعيته الوجودية من ناحية، ومن أخرى له مصداقيته التاريخية والاجتماعية، ومبرر ما قلنا التنوع العرقي والقومي، والتعدد اللساني **(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**(22)) الروم. واللغوي، ومن ثمة تباين الرؤى الحياتية **(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ**

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(148)) البقرة. ومنها إلى مناهج الحياة ونظمها (**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**(48)) المائدة. (**لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ**(67)) الحج.

فالكون والأرض كأنهما مساحة شاملة واسعة، تحوي طرقا لكل أفقها، والإنسان مطالب فطريا، وطبيعيا، وتاريخيا، وتشريعيا بسلوكها، ولا خيار له في ذلك، ولكن ألا ينتهي به الحال إلى الصراع والتضاد والإقصاء والاستعباد والتهميش؟

نعم إذا اعتبر البشر التنوع تهديدا، وضاقوا به، وعملوا على زحزحته بالقضاء على بعضهم، أما إذا اعتبروه موردا وجوديا حافلا بالحيوية، ودافعا إلى العمل لصالح الإنسان من حيث ما هو، فإن الأمر سيستحيل إلى حالة من الانسجام المتقارب، الذي يضع أرضية اتفاق واشتراك، يسمح بالتعاون والتعاضد؛ فالبشرية تبقى أقواما كثيرة يقبل منها الأسود الأبيض، والأصفر الأحمر، والعكس، دونما استعلاء ولا تفاضل، إلا فيما تقدمه كل جهة مما ينفع الناس، واللغات مرآة الأمم وحاملة هويتها، تظل على عبارتها ومفهومها ومنطوقها، إلا فيما يتم تطويرها بين أهلها، والديانات لا إكراه فيها؛ فكل معتقد مسلِم بما يؤمن به، والدين الواحد، موحد الأصول متعدد الفروع والمذاهب، والحضارة الواحدة مشتركة القيم والمصير، لكنها حاوية لأقوام شتى. فالإسلام حضارة انضوى تحت جناحها: البربر والعرب والفرس والترك والهنود والأفارقة والفراعنة...ومع ذلك عاشوا موحدين متعاونين، إلا إذا غلب عليهم وازع الغريزة والطبيعة، فإنهم يصارعون بعضهم.

وهنا نقرر أن التعايش ممكن، بل ضروري، لكي تتعارف البشرية - حسب منطوق الآية - وتتعاون، وتتنافس في إطار ما يخدم البشرية، فتُضمن الحقوق والمصالح للأطراف جميعا، وشكل التعايش المقصود هو الشكل التدافعي الذي يضمن بقاء التعدد والتنوع والاختلاف، لكن في اتجاه المنافسة والسعي الحثيث المشترك..[10]

4- الضوابط الإنسانية للتعارف، والاعتراف المتبادل:

يستحيل التعارف في ظل النفسية المتوجسة من الآخر، والناظرة إليه بعين الدونية والاحتقار، فليس يقدر على التعرف من ظن نفسه الأفضل على الإطلاق، أو ليس للحياة نموذج أسلم ولا أكمل من طريقته هو؛ فيمتنع السلوك الإيجابي المتجاوب، فتتحول دواعي الاجتماع الكوني الإنساني، إلى أسباب افتراق وتباعد، مما يدعو

إلى ضرورة توفر ضوابط ولوازم تجمع والتقاء، تيسر للمتعارفين تثاقفا إنسانيا، والتنابذ شكل التشابه والتعارض، "...والنظر في النتاجات والإبداعات الإنسانية لأتباع الديانات الأخرى، إذ سيرى علماء الدين، أن الأديان الأخرى يوجد في من يعتنقونها رجال أفذاذ، لا يمكن للمرء أن ينكر عظمتهم الأخلاقية والمعنوية؛ وهذا بنفسه يدل على أن الشخص الذي يتمتع بهذه الفضائل، وهو تابع لدين آخر، لا محالة يكون قد استمد بعض هذه الفضائل من التعاليم الموجودة في الدين الذي ينتمي إليه، فأنا المسلم ليس بمقدوري إنكار أن الديانة الهندوسية أنتجت شخصيات لامعة، مثل (غاندي) و(طاغور الشاعر)، وصارت لهم فيما بعد شهرة عالمية،... لا مناص لي من الإذعان بأن الدين الذي ربى شخصيات متوهجة كهؤلاء، لابد وأن ينطوي على تعاليم سامية، تؤهله لإنتاج نماذج إنسانية من هذا القبيل".[11]

فقد لا يكون أبلغ في التوطئة للحوار بين الأديان المتأسس على التعارف، مثل التسليم بأن الديانات الأخرى المكونة للثقافات المختلفة، فيها كثير من الفضائل التي تلد رجالا عظاما، يدافعون عن الإنسانية، وعنها يردون أشكال الأنظمة الدولية الجائرة، بغض الطرف عن اللون، والعرق، والانتماء؛ فروح التعارف متلافية للحدود متجاوزتها، كيف لا، "وجميع الأديان والمذاهب استطاعت على مدى قرون أن تبعث البهجة والسرور، والأمل والطمأنينة، في نفوس الكثيرين، وأن تخفف من حدة الآلام والمشاق الروحية والمادية إلى حد كبير، وهذا يدل على إن تلك الأديان لها نصيب من الحقانية، بمقدار ما استطاعت أن تؤثر إيجابيا في المجتمعات.."[12]. لكن ما أود استدراكه، أن بعض المذاهب البشرية قد أورثت المعاناة كما ألمحنا سالفا، بغير إطلاق متجن؛ فالفضل موجود ويسع المقدرة على بناء أرض التثاقف والاجتماع، كما يوجد مقابله من يعمل على دفن كل اعتبارات التلاقي والتفاهم.

مما يكرس استعدادات تنفي التعصب والتشرنق على الذات، ولا يولد "..التحيز ضد أوروبا والغرب، ولسنا في إطار تكريس الصراعات الحضارية؛ فعالمية الإسلام (وخروجنا) من قبل بالرسالة إلى الناس كافة، ودمجنا بين الحضارات والثقافات والأعراق،... والتزامنا بعقيدة التوحيد و(التعارف) بين الناس، وإيماننا بوجوب دخول البشرية في السلم (كافة)، كل هذا يجعلنا لا ننطلق من منطق التحيز، بل نعذر الغير إن تحيز ضدنا -فللغير- من موروثه التاريخي ونسقه الحضاري ولاهوته الديني، ما قد يدفعه لذلك.."[13].

الدخول في السلم من أوجب ضوابط التعارف، وألح آلياته وجوديا، لبقاء المتعارفين ابتداء، وتاريخيا للتمهيد في الدخول في دواعي التفاهم، وتبادل الرؤية للحياة، بشكل يولد معقولية التعايش في سياق وجودية التنوع والاختلاف رأسا؛ فتفزع البشرية في زمن التنابذ والخصام إلى شرعة الرشد والسلام، فيكون وفق الوعي السابق، "...التحول الإنساني إلى الكونية، بديلا عن الموضعية والوضعية، فتتكون لدى الإنسان نظرية

وجود، مرتبطة بالله سبحانه، بوصفه خالقا، ومصدرا للكتاب والحكمة، فتتشكل عقلية الإنسان وأخلاقياته على ضوء هذا الارتباط الإلهي فيتعالى، على نزعته الغريزية البهيمية الدنيوية العابرة، وينتمي لمنظومة إلهية من القيم، هي نقيض التعالي في الأرض وإفساد وسفك الدماء، مهما كانت المبررات النفعية، ونزعتها العلمية غير الأخلاقية، وتمركزها حول الذات الفردية..."[14]. ولا يسرعن إلى استنتاج أن ما سقناه، خصوصية رؤية، تمثل حائلا تاما عن التعارف، في الاعتراض بعض المقبولية، لكنها تتلاشى، باعتبارنا القيم المتضمنة هي إنسانية كونية، موجودة عند شعوب الأرض جميعا، قبالة معاناتها من المسلوبية المفتعلة لأنظمة الاستبداد العالمية باسم التحضر، ونقله للهمجيين، تغطية للرغبة في السيطرة والتعدي؛ ولو خيرت الإنسانية-بعيدا عن أساليب التمويه والدعاية- بين قيم متجاوزة متجاورة، تؤمن بالإنسان كله، وبين أخرى تعصبية انغلاقية، فإنها تختار الأولى، باعتبار الرشد الذي تؤول إليه الآن، وبالتدريج. "..فالعالم اليوم كله يتجه الآن للبحث عن الخلاص الكلي، وضمن حالات يتعذر فيها نشدان الخلاص القومي العنصري أو الطبقي أو اللاهوتي العصبوي الآحادي الذاتي التكوين، هذا الوضع العالمي - بوصفه عالميا - لا يستجيب عند طرح الحلول إلا للبدائل التي بمقدورها تقديم نفسها عالميا...(وهنا)؛ فإننا نستجيب لنوع من العالمية الاختيارية التي تقوم على إنسانية التوجه، وليس على قهريته، كما تفعل الحضارات المادية التي تود تفصيل عالم على قياساتها الذاتية، وبنهج مصالحها"[15].

إذن من الضوابط التي تعمل على توليد التعارف السليم المتوازن، إزالة التوجس من الآخر والخوف منه، ومعرفة ذاتية الآخر في سياق الوحدوية العالمية، وتقاسم شرطيات الالتقاء والتذكير بها باستمرار، وأن مخزن البشرية قيميا، ليس محصورا في نطاق أرضي واحد، بل هو متوزع في جنبات الوجود العريضة، ثم خطاب الإنسان للإنسان لأنه كذلك. وأساس التعارف الذي ننظر له، يعود إلى منطق "..الخروج للناس، وليس الاجتياح الإمبراطوري، والتعارف بغية التفاعل الحضاري والفكري، وليس الاستحواذ على الغير ونهب ثرواتهم، والدعوة للتوحيد وليس الإكراه.."[16].

5- فلسفة نبذ العنف مهاد التعارف:

تكاملت الإنسانية في مسيرتها الحضارية، إلى أن بلغ بها الحال مطاولة النجوم كما يقولون، إلا أنها وللأسف لما تتجاوز بعد طريقة البدائيين في معالجة مشكلاتها، فهي لا تزال تؤمن بالعنف والقوة طريقا لحل المشكلات، مع الذات ومع الآخرين، وكأني بالعالم غابة تحكمه شريعة القوي، وليس في فسحة إنسانية مكرمة، يوجهها القانون ويحميها، وليس من حل ممهد للتعارف وموطئ له، مثل نبذ العنف وإحلال روح التسامح محله، "وإذا استطعنا أن ننبذ العنف بقناعة؛ فسنتحرر تحررا عظيما، يزيل الخوف والرعب من قلوبنا، ربما نقتل ويقتل معنا آخرون، ولكن لن يقتل العدد الذي يقتل الآن بسبب استخدام العنف؛ وحتى الآن لم يبحث مقدار القوة

التي يمكن للإنسان أن يمتلكها إذا نبذ العنف، وكم يكون جبانا يدين نفسه، ولا يظهر على حقيقته إذا بقي العنف في داخله"[17]. فالتوجس والنظر بريبة إلى المخالفين، يبقي روح الضغينة كامنة ومتربصة، فيُعاق التعارف ويمنع؛ لأن كل طرف ينتظر الفرصة ليجهز على الآخرين، متناسين الأيام الخوالي، وما أظهرته من مصائر الإمبراطوريات العازمة على قوة العضلات، كيف انتهت، فمن رفع سيف البغي به يقتل، والبشرية مدعوة إلى التمهيد لنظام عالمي كوني، وعالمية إنسانية تتأسس على المعنى الأخلاقي، وقوة المعنى، وليس على ترسانة الرعب المهدد للبشرية ومستقبلها؛ فشرعة الحياة ظلم وتعد، أو استقرار وتكامل، وفي الأرض ما يسع الجميع، لو ما ضيق الأنفس وتبرمها وأنانيتها. و"التفسير النظري للحضارة في العصر الجديد، هو أن الوسائل والأساليب القمعية تعود إلى البشر الحفاة العراة، ولا ينبغي للإنسان المتحضر أو المكتسي اللجوء إلى الوسائل القسرية القمعية المنسوخة واللامجدية، ولكن إذا خرقت هذه النظرية الحضارية، أو ثبت بطلانها أو لا جدواها، فمن الممكن اللجوء حينها إلى عرف آخر، نحن الآن نتحدث عن عرف بات مقبولا على الصعيد الإنساني"[18]. ويزيد الأمر رسوخا إذا أخذنا استعداد الإنسانية اليوم لتجاوز مراحل الهمجية في التواصل، وقد لاقت منها الويلات، وخذ ما ينعت بالحروب العالمية في القرن العشرين، وما خلفته ليس من القتلى وحسب، بل في غور الضمير الإنساني الذي أضحى يتوجس من النوع الإنساني ذاته، في حين لو عملت مؤسسات المعرفة ومؤسسات الترويج لها على التنظير لسماجة العنف من حيث ما هو؛ فستتمهد أرض صلبة، يقف عليها الضمير الكوني، بطمأنينة وثقة في قابل الأيام.

عادة ما يشار إلى الوعي السالف النابذ للعنف، على أنه مراوغة تكتيكية، وليس من قبيل التأسيس المبدئي، الذي ينطلق من مرجعية نظرية واضحة، تهدف إلى آفاق رحبة وعريضة، مركزة في نفوس البشر حالات التوازن الرافض للعنف والمنكرة له، فما كان في شيء إلا شانه، وما نزع عن شيء إلا زانه، ويتجلى ذلك في نطاق الأخلاق الكلية، وهي "..في رؤية الإسلام ليست قضايا مرحلية تكتيكية، بل هي منهجية ثابتة في شخصية الإنسان المسلم، والتزام الأخلاق مبدأ في جميع المجالات، في التعامل مع الأسرة والمجتمع، وعلى صعيد العلاقات الدولية، وليس في مجال العلاقات الشخصية فقط."[19]. وما يدفع بأوضاع الحياة إلى أشكال أكثر استقرارا، هي هذه الروح التثاقفية المبدئية التي لا ترهن التواصل بمصالح آنية، بقدر ما توثقه بقيم كلية عامة، تشد تقلبات الأوضاع وأحوالها إلى معنى راسخ وثابت، يحمي البشر لأنهم كذلك، وليس لاعتبارات أخرى متقلبة.

والعنف إضافة إلى التقدير السالف، "ليس الضرب باليد، والتراشق بالصواريخ، أو تفجير السلاح النووي فقط، فهذا أقصى جرعات العنف، ولكنه طيف متحرك من الإمكانيات والسلوك، يتأرجح من الفكرة إلى الفعل؛ فالحروب تبدأ في الرؤوس قبل سل السيوف، والكراهية تبرمج تعبير الوجه الحاقد، واللفظة السامة، ومد اليد

واللسان بالسوء"[20]؛ فرب فكر يورث أحوالا من العداوات الكونية بين العالمين، ومن شاء برهنة على ما قيل، فليرجع قليلا في الزمن ليرى ما فعلته الرؤية النازية والفاشية كلاهما في أوروبا المعاصرة، حيث قتل أكثر من ستين مليونا من البشر، فقط لأن وعي الإلغاء والإقصاء قد استبد بنفسيات الحكام في تلك البلاد، مترجمين روح الصراع الكامنة التي إذا تأجج أوارها لم تبق ولم تذر، وهنا يتكون العنف من حيث طبيعته، من: "..ثلاث تجليات؛ كراهية، وتهميش، وحذف للآخر، كفكرة كمونية شيطانية –أنا خير منه- تتطور إلى التصرف باللسان، بعدم اعتماد الخطاب الإنساني، من الهمز واللمز والاحتقار والسخرية وتحويرات الكلمات والتنابز بالألقاب، وتنتهي باليد والسلاح، لأذية وإلغاء الآخر، لتصل في تصعيدها الأعلى، وجرعتها القصوى، إلى التصفية الجسدية، وإلغاء وجوده المادي والمعنوي.."[21].

الهوامش والإحالات:

1. دواق الحاج: المنهج المعرفي التوحيدي في فكر عبد الوهاب المسيري، مدخل إلى الإبستمولوجيا التوحيدية، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، السنة السابعة عشرة، العدد 68، ص 72 وما بعدها.
2. المصدر نفسه، ص 18
3. أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ت خلف محمد الجراد، عالم المعرفة، العدد 215، المجلس الأعلى للثقافة، الكويت، 1996، ص 18
4. سورة النساء، آية 1
5. حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، نسخة إلكترونية.
6. جورافسكي: المرجع السابق، ص 24
7. مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الفكر، سوريا، ط01، 2005، ص 165
8. دواق الحاج: المهدوية وشرطية المعقولية، مؤتمر عقائد المهدوية، طهران، 2007، ص 8
9. دواق الحاج: من العولمة إلى العالمية، معارضة العولمة ممكنة وواجبة، الشهاب الثقافي، 1428/04/17 هـ.
10. دواق الحاج: في التنوع سنة كونية، وفي التعايش ضرورة تاريخية، مجلة متابعات، شركة باتنيت للطباعة والنشر، السنة الأولى، العدد الثاني، 2005، ص 5
11. مصطفى ملكيان: العقلانية والمعنوية، مقاربات في فلسفة الدين، سلسلة فلسفة الدين والكلام الجديد، ت عبد الجبار الرفاعي، دار الهادي، بيروت، ط01، 2005، ص 474
12. المصدر نفسه، ص 475
13. طه جابر العلواني: نحو منهجية معرفية قرآنية، سلسلة فلسفة الدين والكلام الجديد، دار الهادي بيروت، ط01، 2004، ص 481
14. محمد أبو القاسم حاج حمد: الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، بيروت، ط01، 2004، ص 36
15. المصدر نفسه، ص 446
16. محمد أبو القاسم حاج حمد: رباعية العولمة عبر التاريخ، مقال مخطوط، ص 3
17. جودت سعيد: مفهوم التغيير، دار الفكر، سوريا، ط01، 1995، ص 153
18. عبد الكريم سروش: الدين والتسامح والمدنية، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة الثامنة، العدد27، بيروت،2004، ص 53
19. حسن موسى الصفار: الاستقرار السياسي والاجتماعي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط01، 2005، ص 91.
20. خالص جلبي: سيكولوجية العنف، وإستراتيجية الحل السلمي، دار الفكر، سوريا، ط01، 1998، ص 136
21. المصدر نفسه، ص 136

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com